

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورعى عقرب بقوس الجدى نزع الدلو بركة الحيتان

فهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبل والميزان والعقرب والقوس
والجدى والدلو والحوت ، وهى منازل الكواكب السيارة السبعة وهى : المريخ
وله الحمل والعقرب ، والزهرة : وهى الثور والميزان ، وعطارد : وله الجوزاء والسنبل ،
والقمر : وله السرطان ، والشمس : وهى الأسد ، والمشتري : وله القوس والحوت ،
وزحل : وله الجدى والدلو ، وهى فى الأصل القصور العالية . فأطلقت عليها على
طريق التشبيه ، والسراج : الشمس ، خلفه : أى يخلف أحدهما الآخر ويقوم مقامه
فما ينبغي أن يعمل فيه .

المعنى الجملى

بعد أن بسط سبحانه أدلة التوحيد وأرشد إلى ما فى الكون من باهر الآيات
وعظيم المشاهدات التى تدل على بديع قدرته وجليل حكمته - أعاد الكرة مرة أخرى ،
وبين شناعة أقوالهم وتبجح أفعالهم ، إذ هم مع كل ما يشاهدون لا يراعون عن غيهم
بل هم عن ذكر ربهم معرضون ، فلا يعظمون إلا الأحجار والأوثان وما لا نفع فيه
إن عبد ، وما لا ضرر فيه إن ترك ، إلى أنهم يظاهرون أولياء الشيطان ويناؤون
أولياء الرحمن ، وإن تعجب لشيء فاعجب لأمرهم فقد بلغ من جبابهم أنهم يضارون
من جاء لنفعهم وهو الرسول الذى يبشرهم بالخير العميم إذا هم أطاعوا ربهم وينذرهم
بالويل والثبور إذا هم عصوه ، ثم هو على ذلك لا يبتغى أجرا .

ثم أمر رسوله بالألأ يهرب وعيدهم ولا يخشى بأسهم ، بل يتوكل على ربه
ويستجيب بحمده وينزهه عما لا يليق به من صفات النقص كالشريك والولد ، وهو
الخبير بأفعال عباده فيجازيهم بما يستحقون .

الإيضاح

(ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم) أى ويعبد هؤلاء المشركون من دون الله آلهة لا تنفعهم إذا هم عبدوها ، ولا تضرهم إن تركوا عبادتها ، فهم عبدوها مجرد التشهى والهوى ، وتركوا عبادة من أنعم عليهم بهذه النعم التي لا كفاء لأذناها ، ومن ذلك ما ذكره قبل بقوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » إلى آخر الآيات .

ثم ذكر لهم جرماً آخر فقال :

(وكان الكافر على ربه ظهيراً) أى وكانوا مظاهرين للشيطان على معصية الرحمن ، وذلك دأبهم ودينهم ، فهم يعاونون المشركين ويكونون أولياء لهم على رسوله وعلى المؤمنين بمساعدتهم على الفجور وارتكاب الآثام ، وخذلان المؤمنين إذا أرادوا منعها والتنفيذ منها كما قال : « وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ » .

وقد يكون المعنى --- وكان الكافر على ربه هينا ذليلاً لا قدر له ولا وزن له عنده من قول العرب : ظهرت به ، أى جعلته خلف ظهره ولم تلتفت إليه ، ومنه قوله تعالى : « وَاتَّخَذُوا نُؤُوسًا مَوْرَاءَ كُمُ ظَهْرِيًّا » أى هينا ، وقول الفرزدق :

تميم بن قيس لا تكونن حاجتي بظهر فلا يعيا على جوائها

قال ابن عباس نزلت الآية في أبي الحكم بن هشام الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل بن هشام .

ثم بين عظيم حقتهم ونفورهم من جاء لجلب الخير لهم ودفع الأذى عنهم فقال : (وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) أى كيف تطلبون العون على الله ورسوله والله قد أرسل رسوله لنفعمكم ، إذ قد بعثه ليبشركم على فعل الطاعات وينذركم على فعل المعاصي ، فتستحقوا الثواب وتتعدوا عن العقاب .

وخلاصة ذلك — لاجهل أعظم من جهل من استفرغ جهده في إيذاء من يرجو نفعه في دينه ودنياه .

وفي هذا تسلية لرسوله حتى لا يحزن على عدم إيمانهم .

ثم أمر رسوله أن يبين لهم أنه مع كونه يريد نفعهم لا يبغى لنفسه نفعاً فقال :
(قل ما أسألكم عليه من أجر) أى قل لمن أرسلت إليهم : لا أسألكم على ما جئت به من عند ربى أجراً ، فتقولوا إنما يدعوننا ليأخذ أموالنا ، ومن ثم لا تتبعه حتى لا يكون له فى أموالنا مطمَعٌ .

(إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً) أى لكن من شاء منكم أن يتقرب إلى الله بالإتفاق فى الجهاد وغيره ويتخذ ذلك سبيلاً إلى رحمة ونيل ثوابه فليفعل .

وخلاصة ذلك — لا أسألكم عليه أجراً لنفسى ، وأسألكم أن تطلبوا الأجر لأنفسكم باتخاذ السبيل إلى ربكم لنيل مشورته ومقرته .

وبعد أن بين له أن الكافرين متظاهرون على إيذائه — أمره بالتوكل عليه فى دفع المضار وجلب المنافع فقال :

(وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده) أى وتوكل على ربك الدائم الباقي رب كل شىء ومليكه ، واجعله ملجأك وذخرك وفوض إليه أمرك واستسلم له واصبر على ما نابك فيه ، فإنه كافيك وناصرك ومُبلِّغك ما تريد ، ونزهه عما يقوله هؤلاء المشركون من الصاحبة والولد فهو الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ، كما تنزهه عن الأنداد والشركاء من الأصنام والأوثان فهو لا كفء له ولا ند : « وَلمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

وقد علمت قبل أن التوكل اعتماد العبد على الله فى كل الأمور ، والأسباب وسائط أمرنا باتباعها من غير اعتماد عليها .
ونحو الآية قوله : « وَاللهُ يَعِصُكُمْ مِنَ النَّاسِ » .

وفى قوله : (الحى) إيماء إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل على من لم يتصف بالحياة من صنم أو وثن ولا على من لا بقاء له ممن يموت ، لأنه إذا مات ضاع من توكل عليه . وحكى عن بعض السلف أنه قرأ هذه الآية فقال : لا ينبغي لذى لب أن يثق بعدها بمخلوق .

ثم أنذرهم وحذرهم بأن ربهم محص أعمالهم عليهم ومجازيهم عليها يوم القيامة فقال :

(وكفى به بذنوب عباده خبيرا) أى وحسبك بالذى الذى لا يموت خبيرا بذنوب خلقه ما ظهر منها وما بطن ، فهو لا يخفى عليه شيء منها وهو محصيا عليهم ومجازيهم عليها إن خيرا نغير وإن شرا فشر ، فلا عليك إن آمنوا أو كفروا .

وفى هذا سلوة لرسوله ووعيد لأوثك الكافرين على سوء أفعالهم وإعراضهم عن اتباع رسوله ومناصبته العداوة وأنه قيل إذا أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم عمله فى مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة .

ثم وصف نفسه بذكر أفعاله التى تجعله حقيقا أن يتوكل عليه فقال :

(الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) تقدم إيضاح هذا فى سورة يونس وهود وطه ، ولكن يلاحظ هنا أنه تعالى وصف نفسه بالأبدية والعلم الشامل ثم بخلق السموات والأرض ليقرر وجوب التوكل عليه ويؤكد كده ، فإن من أحدث هذه الأجرام العظيمة على ذلك النمط البديع وجعلها مرفوعة بغير عمد فى تلك الأيام وقد كان قديرا على إبداعها دفعة واحدة بقدرته التى لا تقف على كنهها العقول - جدير بأن يتوكل عليه ويفوض الأمر إليه .

(الرحمن) أى عظيم الرحمة بكم والحذب عليكم ، فلا تعبدوا إلا هو ولا تتوكلوا

إلا عليه .

وخلاصة ذلك — توكلوا على من لا يموت وهورب كل شيء وخالقه وخالق

السموات السبع على ارتفاعها واتساعها وما فيها من عوالم لا يعلم كنهها إلا هو، وخالق

الأرضين السبع على ذلك الوضع البديع في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ويقضى بالحق .

(فاسأل به خبيراً) أى فاسأل عن خلق ما ذكر خبيراً به يخبرك بحقيقته وهو الله سبحانه ، لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو ، فالأيام التي تم فيها الخلق إنما هي أطوار ستة سار عليها طورا بعد طور وحالا بعد أخرى كما يرشد إلى ذلك قوله : « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » والاستواء على العرش لا يراد به الجلوس عليه بل تمام التصرف فيه .

فمن كان محدود الفكر فليقف عند ظاهر اللفظ ويترك البحث ، ومن كان حصيف الرأى طليق الفكر فليجد في البحث والدرس وسؤال أهل الذكرك من العلماء ليعلم المراد من ذلك على قدر ما تصل إليه طاقة البشر .

وبعد أن ذكر سبحانه إحسانه إليهم وإنعامه عليهم ذكر ما أبدوه من الكفر في موضع الشكر فقال :

(وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟) أى وإذا قيل لهؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم : اجعلوا خضوعكم وتعظيمكم للرحمن خالصا دون الآلهة والأوثان ، قالوا على طريق التجاهل : وما الرحمن ؟ أى نحن لا نعرف الرحمن فنسجد له .

ونحو هذا قول فرعون : « وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ » حين قال له موسى عليه السلام : « إِنَّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وهو قد كان علينا به كما يؤذن بذلك قول موسى له : « لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ » .

ثم عجبوا أن يأمرهم بذلك وأنكروه عليه بقولهم :

(أنسجد لنا تأمرا ؟) أى أنسجد للذي تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه .

ثم بين أنه كلما أمرهم بعبادته ازدادوا عنادا واستكبارا فقال :

(وزادهم نفورا) أى وزادهم هذا الأمر بالسجود نفورا وبعدا مما دعوا إليه ، وقد كان من حقه أن يكون باعنا لهم على القبول ثم الفعل . وكان سفيان الثورى يقول فى هذه الآية : إلهى زدنى لك خضوعا ، ما زاد عداك نفورا .

روى الضحاك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه سجدوا ، فلما رأهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين . وبعد أن حكى عنهم مزيد النفرة من السجود له ، ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود لمن له تلك الخصائص فقال :

(تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقرأ منيرا) أى تقدر ربنا الذى جعل فى السماء نجوماً كباراً عدها المتقدمون نحو ألف وعدها علماء العصر الحاضر بعد كشف آلات الرصد الحديثة (التلسكوبات) أكثر من مائتى ألف ألف ، ولا يزال البحث يكشف كل حين منها جديداً ، وجعل فيها شمسا متوقدة وقرأ مضيئاً .

ثم ذكر آية أخرى من آيات قدرته ودليلا على وحدانيته فقال :

(وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) أى وهو الذى جعل الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر ، فيكون فى ذلك عظة لمن أراد أن يتعظ باختلافهما ويتذكر آلاء الله فيهما ويتفكر فى صنعه ، أو أراد أن يشكر نعمته ليهنئ ثمار كل منهما ، إذ لو جعل أحدهما دائما لفاتت فوائد الآخر ، ولحصلت السامة والملل ، وفقر العزم الذى يشيره دخول وقت الآخر ؛ إلى نحو أولئك من الحكم التى أحكمها العلى الكبير .

وفى الحديث الصحيح : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » . وعن الحسن : من فاته عمل من التذكر والشكر بالنهار كان له فى الليل مستعجب ،

ومن فاتته بالليل كان له في النهار مستعتب . وروى أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى فقيل له : صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه ! فقال : إنه بقي عليّ من وردى شيء فأخبيت أن أتتمه أو قال أفضيه وتلاهذه الآية : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » الخ .

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا
سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ
بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ
أثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ
تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ
اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ
مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)
وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخْرِثُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْهَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ
إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً
وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَغْتَابُ
بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) .

شرح المفردات

الهنون : الرفق واللين والمراد أنهم يمشون في سكينته ووقار ولا يضربون بأقدامهم
أشرا وبطرا ، الجاهلون : أى السفهاء ، سلاما : أى سلام توديع ومشاركة لسلام تحية
كقول إبراهيم لأبيه : « سَلَامٌ عَلَيْكَ » وبييتون : أى يدرهم الليل ناموا أو لم
يناموا كما يقال بات فلان قلقا ، غراما : أى هلاكا لازما ، قال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعطِ جزيلًا فإنه لا يبالي

والإسراف : مجاوزة الحد في النفقة بالنظر لنظرائه في المال ، والتقتير : التضييق
والشح ، قواما : أى وسطا وعدلا ، لا يدعون : أى لا يشركون ، والآثام : الإثم
والمراد جزاؤه ، مهانا : أى ذليلا مستحقرا ، لا يشهدون الزور : أى لا يقيمون الشهادة
الكاذبة والمراد أنهم لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ، واللغو ما ينبغي أن يلغى
ويطرح مما لا خير فيه ، كراما : أى مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه ، والخزور :
السقوط على غير نظام وترتيب ، وقرة العين : يراد بها الفرح والسرور ، والإمام :
يستعمل المفرد والجمع والمراد الثانى أى أئمة يقتدى بهم في إقامة مراسم الدين ،
والغرفة : كل بناء عال مرتفع ويراد بها الدرجات الرفيعة ، ما يعبا بكم : أى لا يعتد بكم ،
دعاؤكم : أى عبادتكم ، لزاما : أى لازما يحيق بكم حتى يكبكم في النار .

المعنى الجملى

بعد أن وصف الكافرين بالإعراض عن عبادته والنفور من طاعته والسجود له
عز اسمه - ذكر هنا أوصاف خلص عباده المؤمنين ، وبين ما لهم من فاضل الصفات
وكامل الأخلاق التي لأجلها استحقوا جزيل الثواب من ربهم وأكرم لأجلها مشواهم ؛
وقد عدت من ذلك تسع صفات مما تشرّب إليها أعناق العاملين ، وتنتطلع إليها نفوس
الصالحين ، الذين يبتغون المثوبة ونيل النعيم كفاء ما اتصفوا من كريم الخلال ،
وأثوابه من جليل الأعمال .

الإيضاح

وصف الله سبحانه عباده الخالصين الذين استوجبوا الثوبة منه وجزاهاهم على ذلك الجزاء بصفات تسم :

(١) (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) أى وعباد الله الذين حق لهم الجزاء والثوبة من ربهم هم الذين يمشون فى سكينه ووقار ، لا يضربون بأقدامهم كبرا ، ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا .

روى أن عمر رضى الله عنه رأى غلاما يتبختر فى مشيته فقال : إن البختره مشية تكبره إلا فى سبيل الله ، وقد مدح الله أقواما فقال : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) فاقصد فى مشيتك .

وقال ابن عباس : هم المؤمنون الذين يمشون علماء حلما ذوى وقار وعفة .
وفى الحديث إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس فى الإيضاع » (السير السريغ) وفى صفته صلى الله عليه وسلم : إنه كان إذا زال زال تقاعا ، ويخطو تكفؤا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأما ينحط من صلب (التقلع : رفع الرجل بقوة ، والتكفؤ : الميل إلى سنن القصد ، والهون : الرفق والوقار ، والذريع : الواسع الخطا) أى إنه كان يرفع رجله بسرعة فى مشيه ويمد خطوه خلاف مشية المحتال وكل ذلك برفق وثبت دون عجلة ومن ثم قيل كأما ينحط من صلب قاله القاضى عياض فى الشفاء .

وخلاصة هذا — إنهم لا يتكبرون ولا يتجبرون ولا يريدون علواً فى الأرض ولا فسادا .

(٢) (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) أى وإذا سفه عليهم السفهاء بالقول السنى لم يقابلهم بمثلها ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تریده شدة الجاهل عليه إلا حلما .

وعن الحسن البصري : هم حلاء لا يجهلون ، وإن جهل عليهم حملوا ولم يستفهموا . هذا نهارهم فكيف لي بهم ؟ خير ليل ، صفوا أقدامهم ، وأجروا دموعهم ، يطلبون إلى الله جل ثناؤه فكاك رقابهم .

قال ابن العربي : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ولا نهوا عن ذلك ، بل أمروا بالصفح والهجر الجميل ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أندية المشركين ويحييهم ويدانهم ولا يداهنهم .

ولما ذكر تعالى ما بينهم وبين الخلق ذكر ما بينهم وبينه فقال :

(٣) (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) أى يبيتون ساجدين قاعين لربهم أى يحيون الليل كله أو بعضه بالصلاة ، وخص العبادة بالبيتوتة ، لأن العبادة بالليل أحص وأبعد عن الرياء ، وقال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدا قائما . وقال الكلبي : من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء فقد بات ساجدا قائما .

ونحو الآية قوله : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » وقوله : « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » وقوله : « أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ » .

(٤) (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم) أى والذين يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم وشديد آلامها .

وفي هذا مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم للخلق واجتهادهم في عبادة الخالق وحده لا شريك له ، يخافون عذابه ويتهلون إليه في صرفه عنهم غير محتفلين بأعمالهم كما قال في شأنهم : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ » .

ثم بين أن سبب سؤالهم ذلك لوجهين .

(١) (إن عذابها كان غراما) أى إن عذابها كان هلاكا دائما وخسراانا ملازما .

(ب) (إنها ساءت مستقرا ومقاما) أى إنها بنس المنزل مستقرا وبنس القليل مقاما : أى إنهم يقولون ذلك عن علم ، وإذاً فهم أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النجاح .

قال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم ، وقال محمد ابن كعب : طالبهم الله تعالى بثمان النعيم فى الدنيا فلم يأتوا به فأخذ ثمنه بإدخالهم النار .

(٥) (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) أى والذين هم ليسوا بالبذيرين فى إنفاقهم فلا ينفقون فوق الحاجة ، ولا يبخلوا على أنفسهم ، وأهلهم فيقتصرون فيما يجب نحوهم ، بل ينفقون عدلا وسطا ، وخير الأمور أوسطها ، وقد قيل :

ولا تتعلّ في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم
وقيل :

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتت ولم ينهبها تافت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذى دعته إليه من حلاوة عاجل

قال يزيد بن أبى حبيب : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثيابا للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويكفهم من الحر والبرد ، وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجته ابنته فاطمة ، ما نفقتك ؟ قال عمر : الحسنه بين سيئتين ؟ ثم تلا هذه الآية ، وقال لابنه عاصم : يا بنى كل فى نصف بطنك ، ولا تطرح ثوبا حتى تستخلقه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله فى بطونهم وعلى ظهورهم .

(٦) (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) أى والذين لا يعبدون مع الله إلها آخر فيشركون فى عبادتهم إياه بل يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة .

(ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق) أى ولا يقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها، كالكفر بعد الإيمان ، والزنا بعد الإحصان ، وقتل النفس بغير حق .

(ولا يزنون) فيأتون ما حرم الله عليهم إتيانه من الفروج :

روى البخارى ومسلم والترمذى عن ابن مسعود قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تزاني حليلة جارك » فأنزل الله تصديق ذلك : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر) الآية .

وقد نفي عنهم هذه القبائح مع أنه وصفهم بالصفات السالفة من حسن معاملتهم للناس ومزيد خوفهم من الله وإحياء الليل يقتضى نفيها عنهم ، تعريضاً بما كان عليه أعداؤهم من قریش وغيرهم ، وتنبيهاً إلى الفرق بين سيرة المؤمنين وسيرة المشركين ، فكانه قيل : وعباد الرحمن الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر وأنتم تدعون ، ولا يقتلون وأنتم تقتلون الموءودة ، ولا يزنون وأنتم تزنون .

روى مسلم عن ابن عباس : أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا ، إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، لو نخبرنا أن لما عملنا كفرارة ، فنزلت : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) ونزل : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا » الآية . وقد قال ابن عباس وسعيد بن جبیر إن هذه نزلت فى وحشى قاتل حمزة .

ثم توعد سبحانه من يفعل مثل هذه الأفعال بشديد العقاب فقال :

(ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخاد فيه مهاناً) أى ومن يفعل خصلة من خصال الفجور السالفة ، يلقى فى الآخرة جزاء إثمه وذنبه

الذي ارتكبه ، بل سيضاعف له ربه العذاب يوم القيامة ويجعله خالدًا أبداً في النار مع المهانة والاحتقار ، فيجتمع له العذاب الجسدي والعذاب الروحي .

وبعد أن أتم تهديد الفجار على هذه الأوزار أتبعه بترغيب الأبرار في التوبة والرجوع إلى حظيرة المتقين فيفوزون بحبات النعم فقال :

(إلامن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأوأناك يبدل الله سيئاتهم حسناً وكان الله غفوراً رحيماً) أى لكن من رجع عن هذه الآثام مع إيمانه وعمله الصالحات فأوأناك يمحو الله سوابق معاصيه بالتوبة ويثبت له لواحق طاعته .
قال الحسن : قال قوم هذا التبديل في الآخرة وليس كذلك .

قال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة .

وروى أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن السيئات تبدل بحسنات » ، وروى معاذ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلاق حسن » .

والخلاصة — إنه يعفو عن عقابه ويتفضل بشوابه ، والله واسع المغفرة لعباده ، فيثيب من أناب إليه بحزبيل الثواب ، ويبعد عنه شديد العقاب .

(ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً) أى ومن تاب عن المعاصي التي فعلها وندم على ما فرط منه وزكى نفسه بصالح الأعمال ، فإنه يتوب إلى الله توبة نصوحاً مقبولة لديه ماحية للعقاب محصلة لحزبيل الثواب ، إلى أنه ينير قلبه بنور من عنده يهديه إلى سواء السبيل ويوفقه للخير ، ويبعده عن الضير .

وفي هذا تعميم القبول التوبة من جميع المعاصي بعد أن ذكر قبولها من أمهاتها .
(٧) (والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً) أى والذين لا يؤدون الشهادات الكاذبة ، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ، ويكرمون أنفسهم عن سماع اللغو وما لا خير فيه كاللغو في القرآن وشتم الرسول والخوض فيما

لا ينبغي ، وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخّم وجهه ،
(يطليه بمادة سوداء) ويحلق رأسه ويطوف به في السوق .

ونحو الآية قوله : « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَأَلَيْكُمْ
أَعْمَالِكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَأَنْبَتِي الْجَاهِلِينَ » .

(٨) (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) أى والذين
إذا ذكروا بها أكبوا عليها سامعين بأذان واعية ، مبصرين بعيون راعية .

وفى هذا تعريض بما عليه الكفار والمنافقون الذين إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا
به ولم يتحولوا عما كانوا عليه ، بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم وجهلهم وضلالهم
فكأنهم سمّ لا يسمعون ، وعمى لا يبصرون .

(٩) (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا
للمتقين إماما) أى والذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من يطيعه ويعبده
وحده لا شريك له - وصادق الإيمان إذا رأى أهله قد شاركوه فى الطاعة قرت بهم
عينه وسر قلبه وتوقع نعمهم له فى الدنيا حيا وميتا ، وكانوا من اللاحقين به فى الآخرة
ويسألون أيضا أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم فى إقامة مراسم الدين بما يفيض عليهم من
واسع العلم ، وبما يوقّعون إليه من صالح العمل .

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، وعلم يُنتفع به من
بعده ، وصدقة جارية » .

وإخلاصة — إنهم طلبوا من ربهم أمرين - أن يكون لهم من أزواجهم
وذرياتهم من يعبده ففقر بهم أعينهم فى الدنيا والآخرة . وأن يكونوا هداة مهتدين
دعاة إلى الخير أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر .

ولما بين سبحانه صفات المتقين المحلصين ذكر إحسانه إليهم بقوله :

(أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً) أى أولئك المتصفون بصفات الكمال الموسومون بفضائل الأخلاق والآداب يجزون المنازل الرفيعة والدرجات العالية بصرهم على فعل الطاعات واجتنابهم للمعكرات ، ويبتدرون فيها بالتصية والإكرام ، ويلقون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام .

ونحو الآية قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

ثم بين أن هذا النعيم دائم لهم لا ينقطع فقال :

(خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً) أى مقيمين فيها لا يظعنون ولا يموتون ، حسنت منظراً ، وطابت مقيلاً ومنزلاً .

ونحو الآية قوله : « وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » .

ولما شرح صفات المتقين وأثنى عليهم أمر رسوله أن يقول لهم :

(قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعائكم) أى قل لهؤلاء الذين أرسلت إليهم : إن الفائزين بتلك النعم الجليلة التى يتنافس فيها المتنافسون ، إنما نالوها بما ذكر من تلك الحاسن ، ولولاها لم يعتد بهم ربهم ، ومن ثم لا يعبأ بكم إذا لم تعبدوه ، فما خلق الإنسان إلا ليعبد ربه ويطيعه وحده لا شريك له كما قال : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

(فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً) أى أما وقد خالفتكم حكى ، وعصيتم أمرى ، ولم تعملوا عمل أولئك الذين ذكروا من قبل وكذبتم رسولى ، فسوف يلزمكم أثر تكذيبهم ، وهو العقاب الذى لامناص منه ، فاستعدوا له ، وتهيئوا لذلك اليوم ، فكل آت قريب .

وخلاصة ذلك — لا يعتد بكم ربى لولا عبادتكم إياه ، أما وقد قصر الكافرون منكم فى العبادة ، فسيكون تكذيبهم مفضياً لعذابهم وهلاكهم فى الدنيا والآخرة . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلّى ربنا على محمد وآله .

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الأحكام

اشتملت هذه السورة على عدة مقاصد :

(١) إثبات النبوة والوحدانية ، والنهي على عبدة الأصنام والأوثان ، وإثبات البعث والنشور وجزاء المكذبين بذلك مع ذكر شبهاتهم التي قالوها في النبي صلى الله عليه وسلم وفي القرآن ثم تنفيدها .

(٢) قصص بعض الأنبياء السالفين وتكذيب أممهم لهم ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(٣) العجائب الكونية من مدّ الظل وجعل الليل لباسا وجعل النهار معاشا وإرسال الرياح مبشرات بالأمطار ومروج البحرين: العذب الفرات ، والملح الأجاج ، وجعل البروج في السماء ، وجعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكورا .

(٤) الأخلاق والآداب من قوله : وعباد الرحمن إلى آخر السورة .